فن العمارة الصحراوية في أدب الرحلات بين العمومية والدقة: دراسة سيميائية

Desert Architecture in Travel Literature between Generality and Precision: Semiotic Study

د. إبراهيم البوعبدلاوي: باحث، المملكة المغربية

Dr. Ibrahim Elbouabdellaoui: Researcher, Kingdom of Morrocco

Email: Ibrahim.elbouabdellaoui93@gmail.com

https://doi.org/10.56989/benkj.v4i5.900

الملخص:

نروم في هذه الدراسة بناء تصور عن فنّ العمارة الصحراوية في الرحلات التي جعلت من الصحراء محطة من محطاتها المتعددة. وسنعتمد في ذلك نوعين من الرحلات؛ الأول يتمثّل في الرحلات التي جعلت من العمارة فنّا عابرا، ولم تتحدث عنه بشكل مسهب، منتقين في ذلك ثلاث رحلات. والثاني يتمثل في الرحلات التي أعطت لهذا الفنّ موقعا متميزا في حديثها وعرّفت القارئ به تعريفا دقيقا. وقد انتقينا، في سبيل ذلك، نموذجين هما رحلة شارل دوفوكو، ورحلة مارك دومازيير وجوزيف كولفان.

إن القصدية الأولى من هذا البحث تتجلى في الكشف عن أشكال تناول فنّ العمارة الصحراوية في أدب الرحلات؛ من خلال التنقل بين رحلات مختلفة كان المجال الصحراوي واحدا من المجالات التي كشفت جوانب منها، معتمدين في ذلك منهجا سيميائيا، زاجنا في استثماره بين الوصف، من خلال ذكر الخصائص الفنية الظاهرة، ثم الانتقال إلى التحليل، عبر استثمار العدّة المعرفية التي تجود بها علينا السيميائيات التأويلية وكذا النصوص الرحلية والتاريخية والأنثربولوجية...

وقد توصلنا من البحث إلى نتائج مهمة من بينها أن فن العمارة ليس فنا عابرا ضمن أدب الرحلات، وإنما هو فنّ مركزي، إذ يعسر على الرحالة ذكر جوانب من حياة القوم دون ذكر فنهم المعماري وأشكال مبانيهم. ثم إن فنّ العمارة فنّ يمكن من خلاله معرفة عدد من الجوانب المهمّة من قبيل السياسة والنظم الاجتماعية المؤطرة لجماعة ما، وذاك ما ظهر من خلال دراسة رحلات كان الفضاء الصحراوي إحدى وجهاتها.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلات، فن العمارة، الصحراء، السيميائيات.

Abstract:

In this article, we seek to build a perception of desert architecture on trips that made the desert one of its many stops. We will adopt two types of trips: The first is represented by the trips that made architecture a passing art, and did not talk about it at length. We chose three trips for this. The second is represented by the travels that gave this art a distinguished position in her discourse and introduced it to the reader in a precise manner. For this purpose, we have chosen two models: the journey of Charles Dufoucauld, and the journey of Marc Dumazière and Joseph Colvin.

The first purpose of this research is to reveal the forms of dealing with desert architecture in travel literature. Through moving between different trips, the desert field was one of the fields that revealed aspects of it, adopting a semiotic approach, which involved us in investing between description, by mentioning the apparent technical characteristics, and then moving to analysis, by investing in the cognitive equipment that semiotics provides us with. Hermeneutics, as well as travelogue, historical, and anthropological texts...

We have reached important results from the research, including that architecture is not a passing art within travel literature, but rather a central art, as it is difficult for travelers to mention aspects of people's lives without mentioning their architecture and the forms of their buildings. Then, the art of architecture is an art through which a number of important aspects can be known, such as politics and the social systems framing a group, and this is what emerged through the study of trips in which desert space was one of the destinations.

Keywords: travel literature, architecture, desert, semiotics.

المقدمة:

يشكل أدب الرحلات واحدا من أخصب الأجناس الأدبية التي يستطيع من خلالها الدارسون استخلاص العديد من النقاط التي تهم مكانا من الأماكن؛ إذ يتضمن هذا الجنس من السرد حديثا عن أعراف الناس وعاداتهم ودينهم وكل ما يمت إليهم بصلة. وبصفة عامة، فإن هذا الأدب ينقل المظاهر البارزة، كما يمكن أن ينقل تلك الشاذة التي لا تتكرر كثيرا.

يعد فنّ العمارة في الصحراء واحدا من المظاهر الحضارية التي اهتم الرحالة العرب وغيرهم بنقلها. ومن خلالهم اكتشفنا كيف تتطور الطرز المعمارية، وكيف تؤثر بيئة على بيئة أخرى. إن هذا الأدب، حتى وإن اهتم في أغلب الأحيان بالمدن الواقعة في المركز كمراكش وفاس، لم ينس إيراد إشارات، بل وصفحات، للحديث عن مدن الصحراء ومداشرها، مبرزا مواد البناء والأشكال والزخارف وغيرها من الأمور التي تفيد الدارس لفن العمارة في لحظة من اللحظات.

إن مختلف الدراسات السيميائية قد جعلت من فنون عديدة مجالا لبيان مردوديتها التأويلية، من ذلك الاشتغال على الفن الروائي والقصصي والمسرحي... لكننا نجد أن الانشغال بفن العمارة من وجهة النظر السيميائية يكاد يكون محدودا.. أضف إلى ذلك أن الكثير من الدراسات السيميائية جعلت من فنون بعينها ميدانا لإبراز خصائصا ومميزاتها، لكنها تحاشت الحديث عن خصائص فن داخل فن آخر؛ وهذا ما سنعمد إليه، إذ سندرس فن العمارة في منطقة معينة انطلاقا من فن آخر هو أدب الرحلات. ومن هذه الإشكالية تولدت لدينا أسئلة، اخترنا منها:

- كيف يصور أدب الرحلة فنّ العمارة، خاصة في المناطق الصحراوية؟
- ما أهم خصائص ومميزات فن العمارة الصحراوية حينما ينتقل إلى أدب الرحلات؟
- ما أشكال تناول فن العمارة انطلاقا من أدب الرحلات؟
- كيف تسعفنا السيميائيات في الكشف عن جوانب لم تدرس بعد أثناء حديثنا عن فن العمارة داخل أدب الرحلات؟

ومن أجل مقاربة هذه التساؤلات والإشكالات اعتمدنا منهجا سيميائيا تأويليا، نزاوج فيه بين الوصف والتحليل، هادفين في ذلك الكشف عن أشكال تجلي فن العمارة داخل أدب الرحلات، خاصة تلك التي جعلت الصحراء إحدى وجهاتها، ومتقصدين جعل هذا الأدب بمثابة وثيقة تاريخية تبرز عددا من الجوانب التي ربما ستظل خفية عن الدارسين إن هم تحاشوا ما ورد في هذا الأدب. كما نتوخى في هذه الدراسة بيان أهم الفروقات الموجودة في الرحلات حين تتحدث عن مدن المركز وحين تذكر مدن الهامش كسجلماسة.

أولا: الرحلة بوصفها بحثًا عن العالم.

تتنوع الرحلات بتنوع المقاصد والغايات التي يتوخاها الرحالة؛ ذلك أن هناك رحلات استكشافية، وأخرى بغاية الحج، أو سفارية، إلى غير ذلك. إن الرحالة يختلفون من ناحية النوازع التي تؤطر كلّا منهم، إذ هناك من يهدف لتقديم صورة حسنة عن الوسط الذي يرحل إليه؛ يعطي لأعمال المنتسبين إليه بعدا إيجابيا، يشيد بعاداتهم، ويعلي من شأن كل ما يمتّ إليهم بصلة. وهناك من يتقصّد تمثيل مكان السفر تمثيلا سلبيا؛ يجعل أشخاصه منفّرين، وعاداتهم همجية، ولباسهم منحطا...

صوّرت لنا الرحلات تفاصيل شتى من حياة الأمم والشعوب التي تمّ الانتقال إليها، ركّزت على جزء أو أجزاء، وأهملت أخرى. ولعلّ من أكثر الأشياء استئثارا بالوصف ما يتعلّق بعمارة الأماكن التي تم الارتحال إليها.

إن من بين المظاهر التي تعطي صورة عن الآخر ما يتعلّق بنمط البناء، إذ يعدّ أولى العناصر التي يصطدم بها الحسّ البصري في علاقته بالآخر. ذلك، أن فنّ العمارة يخاطب العين أكثر من مخاطبته أي حاسة أخرى، يقدّم فكرة أو أفكارا عن الآخر. لذلك، فهو رمزي بالدرجة الأولى.

تحدثت الرحلات عن عمارة المناطق التي تمّ التوجه إليها بطرق شتى، منها ما رسم صورة دقيقة، فتكلّم عن هندسة المباني ومكوناتها وزخرفتها، وما إلى ذلك. ومنها ما أجمل القول في بعض الانطباعات العابرة لا غير. إن المناطق الصحراوية حظيت باهتمام متفاوت من لدن الرحالة، إذ خصصّ بعضهم محطات كثيرة لهذا المجال، فأسهبوا في وصفه وذكر خصائصه، وهناك من تحدث عنه بصورة موجزة، وربما لم يخصص له أي إشارة.

أ- عمارة سجلماسة عند الوزان:

يفصّل الحسن الوزان القول في الكثير من الأمور الخاصة بالمناطق التي انتقل إليها، يفرد لها مجالا هامّا؛ يتحدث عن لباس القوم، وأخلاقهم وعاداتهم، وشكل بنائهم، والحرف المتواجدة عندهم، وما إلى ذلك. لكن هذا الأمر يختلف من منطقة إلى أخرى بحسب الأهمية.

زار الوزان سجلماسة بعد أن سقطت وتفرّق سكانها في القصور. إذ كانت هذه المدينة أو الإقليم مزدهرا بما تدره عليه مداخيل التجارة الصحراوية. ذلك أن هذا الإقليم كان يشكّل قاعدة تجارية مهمة تربط بين فاس وإفريقيا جنوب الصحراء، وهذا ما جعل السلاطين يسارعون لتملّكه وتملّك الطريق الصحراوي المتواجد فيه.

تحدث الوزان عن الإقليم وعن المدينة، لكنّ ذلك كان بعد الخراب الذي حدث لها، وبعد تفرّق الناس في القصور. وقد ركّز على نقاط أساسية مهمّة تتمثل فيما يلي:

- تحديد الموقع الجغرافي، والممتد على مسافة عشرين ميلا على طول زيز من الشمال إلى الجنوب.
- عدّ القصور المكونة لهذا الإقليم وكانت حينها 300 قصر، منها ما هو كبير، ومنها ما هو صغير.
- ذكر نظم الحكم التي يخضع لها السجلماسيون؛ إذ في القصور الكبيرة من قبيل توبعصامت والمامون نجد أمراء يحكمون. لكنّ هذا الحكم خاضع لسلطة الأعراب الذي كانوا يظاهرونهم ويناصرونهم مقابل التبعية لهم.
- تقديم وصف للمظاهر العمرانية التي تخص هذا الإقليم والقصور الثلاثة المهمة فيه. لكن هذا التقديم يمتاز بالإيجاز، إذ لم يذكر مواد البناء ولا شكل القصور من الناحية الخارجية، ولم يتطرق لعدد من العناصر الهامة بالنسبة لدارس فنّ العمارة. فحين يتحدث عن قصري تنجيوت وتابوعصامت لا يذكر أبدا أي وصف لهما في الجانب المعماري، واكتفى بالقول إن قصر

المأمون كبير حصين[1]. وهذا بخلاف حديثه عن درعة، وهي أيضا مجال صحراوي، فقد ذكر كثرة قصورها، وذكر المواد التي تبنى منها وكذا شكلها. يقول الوزان:

"وعلى ضفاف النهر يتوالى عدد من القرى والقصور المبنية بالحجر الغير منحوت والطين، والسقوف كلها من جذوع النخل والخشب، مع أن هذا الخشب ليست له قيمة كبيرة لأنه ليفي وغير مكتنز كسائر الأخشاب"[2].

وعلى الرغم من أن الوزان ذكر عددا من الجوانب المعمارية حين تحدث عن درعة، إلا أنه لم يستعرض أشكال المنازل، ومكوناتها، كما لم يذكر زخرفتها، أو أي قصة تتحدث عنها. وهذا ما يجعل من هذه المناطق الصحراوية لا تسترعي انتباهه كثيرا مقارنة مع ما نجده حين حديثه عن مراكش وفاس.

حازت مدينة سجلماسة، رغم اضمحلالها، أهمية عنده، فتحدث عن بانيها، وسبب التسمية، وغير ذلك من الأمور المختلف بشأنها. إن وصفه ينبئنا عن أننا أمام مدينة لا ينحصر اهتمام سكّانها على الضروري، وإنما يتعداه إلى الكمالي. وذلك، في إشارة إلى أننا أمام مدينة تكتمل فيها أركان المدنية والتحضر، والتي تختصر غالبا في تواجد تجّار أثرياء، وصناع متعددين، وعدد من المرافق التي يحتاجها الإنسان في حياته، وهو ما ليس متوفرا في أوساط صحراوية أخرى، كقصور درعة، حيث يقول:

"ليس في قصور هذا الإقليم (إقليم درعة) سوى القليل من مرافق الحياة الحضرية، بالرغم من وجود صناع بالإضافة إلى صائغين يهود في طرف الإقليم المقابل لموريطانيا على الطريق الرابطة بين فاس وتمبكتو"[3].

إن وصفه للمدينة يتركز على أبرز المرافق التي تتوفر عليها، وهي في غالبها ذات ارتباط بالجانب الديني والعلمي الذي كان يميّز تاريخها، من قبيل المساجد والمدارس، لكنه لا يدقّق في ذكر العناصر والأجزاء المعمارية، وإنما يصفها وصفا مجملا، إذ لا يعطينا صورة واضحة عنها، ولا يرسم إلا تمثّلا ضبابيا عنها، حيث نراه يقول:

[1] – الحسن الوزان، وصف إفريقيا، الجزء :2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي– بيروت، ط2، 1983، ص124.
[2] – نفسه، ص118.
[3] – نفسه، ص119.

"كانت سجلماسة مدينة متحضرة جدا، دورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان. وكان فيها مساجد جميلة، ومدارس ذات سقايات عديدة، يجلب ماؤها من النهر"[1].

ب- سجلماسة/ تافيلالت: بين مارمول ماربخال وبيدو دو سان أولون:

عرضنا نموذجا من نظرة الرحلة الداخلية؛ أي تلك التي قام بها رحالة من داخل البلد. إن ما يميزها هو الحديث بعمومية عن الفنّ الذي نهدف تعرّف ملامحه. لذلك، لا نحصل هناك إلا على جزء يسير من فائض المعنى، من قبيل ما يلي:

- الاهتمام بالجوانب التحصينية؛ ذلك أننا أمام خطر داهم بشكل مستمر. إن سجلماسة وكل قصورها كانت مسوّرة طوال تاريخها؛ ما يشير إلى العقلية الصراعية التي كانت تميز المنطقة.
- اتخاذ الاستقرار أسلوب عيش من لدن السجلماسيين، لذلك نجد كثرة المنشآت التحصينية، كما نلفي اهتماما بزراعة النخيل، وهو شجر يتطلب مدة من أجل أن يعطي ثمره...
- التركيز على الجوانب العلمية والدينية في المنشآت العامة؛ ذلك أنه لا حديث عن دار الأمير أو قصره أو غيرها من الأشياء الفردية. ما يعطي انطباعا عن أن هؤلاء الناس كانوا في مساكن شبيهة بمساكن الآخرين ولا يوجد ما يميزها عنهم.

لكن لنحاول التعرف على نظرة الآخرين علّنا نأخذ منها ما يوفّر لنا معطيات أكثر حول هذا الجانب من حياة السجلماسيين. ربما يكون كاربخال قد زار المنطقة، لكننا نجده فقط ينسخ ما قاله الحسن الوزان بشأنها. إنه لا يضيف إضافات ذات بال، بل نجده يختصر ما قاله سابقه. لا نجده يذكر مدة مكوثه بالمكان، ولا أية إشارة تؤكد أنه رحل إليه، بخلاف الحسن الوزان الذي قال عن زيارته إنه مكث بأحد القصور سبعة أشهر.

ما يميز وصف مارمول هو الإيجاز والحديث بشكل عام، إضافة إلى تأكيد ما ورد عند الوزان، وكأن المنطقة بقيت ثابتة على حالها كل تلك المدة التي تفصل بين الرحالتين. يصف المدينة، محددا موقعها الجغرافي، ومتحدثا عن أبرز منشآتها وظروف خرابها بالقول:

"تقع مدينة سجلماسة في سهل بجانب زيز، ولها أسوار عالية وجميلة ما تزال آثارها قائمة. كانت هذه المدينة زناتية، قبل أن يستولي عليها يوسف بن تاشفين، وكانت غنية، تمرّ بها القوافل

[1] – نفسه، ص127.

الرّاحلة إلى السودان أو القادمة منه، وكان يوجد بها كثير من المساجد والمدارس، وفي كلّ حي تتدفق المياه من النافورات والسقايات".[1]

نجد هنا التركيز نفسه على الجوانب التحصينية والعلمية، وهي جوانب برعت فيها العمارة السجلماسية. لكننا نعدم حديثا عن منشأة بعينها، وكأننا لا نلفي منشأة بارزة تأخذ بنظر الإنسان الوافد على المنطقة، وهذا يناقض ما نراه حين حديث كل من الوزان ومارمول عن مدينة مراكش وأبرز معالمها العمرانية. إذ تحدّث عن أسوار هذه المدينة، وذكر مواد بنائها وعدد الحراس الذين يقفون على الأبراج وما إلى ذلك. كما أدرج قصصا عن المدينة وما أحدث فيها من الأبنية، مقدما صورة دقيقة تقرّب القارئ من المكان بشكل كبير . نجد ذلك عندما يتحدث عن مسجد الكتبية ومسجد ومدرسة ابن يوسف وغيرها من المنشآت. يقول عن جامع الكتبية ما يلي:

"يقع الباب الثاني في زقاق مستقيم، يفضي إلى ساحة كبيرة فيها جامع عبد المومن ملك الموحدين، وهو بناء ضخم جميل من الداخل والخارج. يقول المؤرخون إن يعقوب المنصور، حفيد هذا الملك، زاد فيه خمسين ذراعا في العلو، لأنه كان منحدرا جدا، وبنى صومعته التي هي شبيهة تماما بصومعتي إشبيلية ومدينة الرباط. ولذا يقال إنها جميعا من صنع يد واحدة. وعلاوة على ذلك فإنه زين الجامع بعدة أعمدة من رخام أمر بنقلها من إسبانيا، مضيفا كشعار لانتصاره أبواب الكنيسة الكبرى بإشبيلية، وما زالت تشاهد حتى الآن، وهي مرصّعة بقطع من البرونز مع أقفال كبيرة من نفس المعدن"...[2]

لم يكتف مارمول بهذه الأوصاف، وإنما تمادى في ذكر الكثير مما يتعلّق بهذا الجامع كقصة الكرات التي تعلو الصومعة، وما جرى لها أيام أحمد الأعرج السعدي، وغيرها. وهذا ما نفتقده حين يتم الحديث عن سجلماسة، وكأن منشآتها لا تستحق أن تفرد لها ورقات خاصة. ذلك أن الحسن الوزان، ومارمول ليس سوى متّبع له، حين تحدث عن هذه المدينة وإقليمها، قال: "لقد ذكرت آنفا باختصار ما رأيته جديرا بالذكر فيما يخصّ إقليم سجلماسة".[3]

وإذا كان مارمول قد زار المنطقة زيارة عابرة، أو لم يزرها مطلقا، فإن بيدو دو سان أولون لم يتمكن من رؤيتها بناء على الإشارات المتوفرة عندنا، والتي تفيد بأنه لم يسمح له بزيارة أي منطقة

[1] – مارمول كاربخال، إفريقيا، الجزء: 3، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف الجديدة– الرباط، 1984، ص154.

[2] – مارمول كاربخال، إفريقيا، ج: 2، مرجع مذكور، ص48.

[3] – الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج: 2، مرجع مذكور، ص125.

خارج المدينة الملكية مكناس[1]. ومع ذلك خلّف لنا وصفا موجزا لمملكة تافيلالت كما كان يسميها، يقول هذا السفير: "أما مملكة تافيلالت، فتعدّ صغيرة بمساحتها وليس بها من مدن مهمّة سوى عاصمتها التي تحمل الاسم نفسه، وهي محاطة بأسوار. لكنّ بها حصنا جيدا"[2].

نكتشف في هذه النماذج الثلاثة التي ذكرنا أننا أمام فضاء هامشي لم تخصّص له الكثير من الصفحات التي تتحدث عن جوانب عديدة من تاريخ وثقافة وعمارة هذه البلاد. وهذا بخلاف فضاءات أخرى شكّلت مركزا نالت تفاصيله اهتماما بالغا، من قبيل مدينة فاس، ومراكش، ومكناس، وغيرها من المدن التي كانت عواصم لسلالات حاكمة مغربية.

ثانياً: الرحلة والتفاصيل: العمارة في قلب السرد.

تختلف الأهداف التي من أجلها انطلق الرحالة في تحرّكاتهم، لذلك يركّزون على جوانب مختلفة في كتاباتهم. شكّلت الرحلة الجاسوسية واحدة من الرحلات التي عرّفتنا على تاريخنا في نقاط مختلفة. مثل كتاب "التعرّف عل المغرب" لشارل دوفوكو وثيقة مميزة تتحدث عن المغرب في لحظة من لحظات ضعفه واندحاره. زار الجنوب الشرقي وترك لنا أوصاف مهمّة عنه وعن بيئته وجغرافيته وتربته وبدرجة كبيرة ما يتعلّق بعمارته.

ما يطبع كتابة دوفوكو هو الدقة والوصف التي تعنى بالتفاصيل؛ إذ يتحدث عن المواقع التي توجد بها القصور وأشكالها والمباني وزخارفها وغيرها من الأمور التي تعطينا تصوّرا واضحا عن ثقافة البناء في هذه المنطقة، بل إننا نستمد منها مقارنات مع مناطق أخرى قريبة أو بعيدة من هذه المنطقة.

يتحدث عن رحلته إلى واحات تدغة وفركلة وغيرهما، وأهم القصور المتواجدة هناك، والأوضاع التي كانت تعيشها المنطقة، يذكر مسميات القصور والمسافات الفاصلة بينها، والعلاقات التي تطبعها، كما يعقد مقارنات بينها وبين أماكن أخرى على المستوى الزخرفي والإنشائي. يقول بعد أن خرج من قصر السوق، وتجاوز تمراكشت:

"منذ غادرت حوض تدغة وفنّ العمارة يسجّل تدنيا. كان هذا الفن قد احتفظ بالرشاقة حتى منطقة قصر السوق، وفي تيعلالين لم يعد وجود لهذه الرشاقة. البنايات من مقدار وبدون زخرفة. توجد تيغرمتين لكنّ جدرانها الأربعة المزدوجة بأبراج في أقصى البساطة. لا تقطيعات ولا تنميقات بهذه الجدران(..) من هنا إلى وجدة ستذكر البنايات بتلك البنايات الموجودة في تادلة وآيت عتاب

[1] – بيدو دو سان أولون، سفارة لويس الرابع عشر إلى المولى إسماعيل، ترجمة: محمد العافية العروسي، مطبعة تطوان، ط1، 2017، ص34.

[2] – نفسه، ص40.

والنتيفة. ليست البنايات في تيعلالين فقط أقل رشاقة مما كانت عليه في دادس ولكنها أيضا أقل عددا"[1].

ما يلاحظه القارئ هنا هو الاحتفاء الذي منحه دوفوكو للعمارة المحلية على حساب عمارات أخرى في مناطق تادلة ووجدة وغيرهما. إن هذا الاحتفاء يظهر العلاقة الإيجابية التي ميّزت هذا الرحالة بالمنشآت التي كان يراها؛ إذ لم يشر لها أي إشارة احتقارية، وذلك بخلاف الوضعية التي كانت تعيشها المنطقة في هذه الأثناء، إذ كانت في وضعية متوترة جدا. لقد وصف الأشخاص وتصرفاتهم والعلاقات بين الجماعات، ونجده في محطات كثيرة يتحامل على المنطقة، غير أنه في حديثه عن فنّ العمارة نراه معجبا ومفتتنا بما رآه وسكنه ومرّ أمامه.

لقد تغيّرت النظرة الهامشية التي كانت تمنح للمنطقة، إذ أسبغت على هذا الكون وضعية أخرى. وهذا ما يؤكده هنري تيراس حين زار المنطقة بالقول: "وهي (الواحات) الأكثر كثافة سكانية، وغالبا الأكثر غنى في إفريقيا الشمالية".[2]

يخالف دوفوكو عددا من الكتاب الذين كتبوا عن عمارة المغرب بشكل عام، من قبيل غابرييل فير صاحب كتاب "في صحبة السلطان"، والذي كان مصوّرا للسلطان المولى عبد العزيز. إذ كان ينظر إلى مختلف المنشآت التي أحدثها نظرة دونية، وهذا شبيه لما سبق وأن قاله بيدو دو سان أولون عن منشآت المولى إسماعيل، مع العلم أنها منشآت تعبّر عن هيبة الملك وجلاله. يقول دو سان أولون:

"لكن الفكرة الكبرى [فكرة الإنشاء والتصميم] لا تستند على أساس سليم لأن جميع هذه المنشآت العمرانية بنيت مع قليل من الفن والدقة مما يجعل من الصعب على أمهر المهندسين أن يميزوا بين الجانب الاقتصادي والمعماري فيها. وإني متأكد جدا من ملاحظتي هذه التي أتاحتها لي زيارتي الخارجية؛ لأنه لم يسمح لي بالدخول لزيارة القصر ولأن الملك نفسه هو المؤلف للتصاميم والمنفذ لها"[3].

[1]– شارل دوفوكو، التعرف على المغرب، الجزء: 1، ترجمة: المختار بلعربي، دار الثقافة– الدار البيضاء، ط1، 1999، ص310.

[2]– هنري تيراس، القصبات الأمازيغية بالأطلس والواحات، ترجمة: حسن أميلي، معهد الشارقة للتراث– الإمارات العربية المتحدة، ط:1– 2019، ص33–34.

[3] – نفسه، ص31.

نجد أنفسنا مع هذا السفير في رؤية تنزع إلى التنقيص من فنّ الآخر، وتؤكد النظرة العدائية التي ينطلق منها في الحكم عليه. مع العلم أن هذه الرؤية قاصرة جدا، وذلك راجع إلى عدة أسباب، نذكر من اثنين:

- يتجلَّى السبب الأول في كونه يتحدث من الخارج، والعمارة الإسلامية عمارة داخلية، تمنح الفضاء الذي يلفه البناء قيمة أكبر. ذلك أن الواجهات لا تحوز أي اهتمام، لهذا نراها بسيطة. أما الداخل فهو المجال الذي تمارس فيه مختلف الوظائف، لهذا نرى الفناءات ومختلف الغرف قد وشيت بجميل الفسيفساء والزليج والجبص. وقد أكّد ذلك عدد من الرحالة من بينهم إتيان ريشي صاحب كتاب: "رحلة في أسرار بلاد المغرب" والذي استضيف من قبل أحد أعيان ووجهاء مدينة فاس. فوصف المدخل بأنه واطئ ومنحن، لكنه انبهر بما رأى حين ولج الفناء والقباب التي تلتفت حوله.

- السبب الثاني هو عدم قدرته على قراءة تاريخ المغرب بشكل مجمل، إذ لا يعرف أن سلاطين المغرب كان لهم علم بالبناء وفنّ إنشاء المنشآت. إذ يحدّثنا صاحب المسند الصحيح الحسن ابن مرزوق التلمساني عن أبي الحسن المريني ومعرفته الكبيرة بفن البناء، بل إنه كان يحلّ عددا من المسائل المستعصية على المهندسين، وهو الذي رسم هندسة مدرسة من مدارسه على كاغد، بل واختط كيفية إنشاء قصره بتلمسان. والأمر ذاته حصل مع أنبه أبي عنان، ومن بعده أحمد المنصور السعدي في إحداثه لقصر البديع بمراكش.

إن شارل دوفوكو كان متصالحا بشكل كبير مع عمارة الواحات، وهو تصالح يبرزه الاحتفاء الشديد المتجلّي في أوصاف تعلي من شأن ما رأى وتظهر الراحة النفسية التي كانت تقابل بها العين ما تشاهد. لذا، سيتحدث عن عدد من القصور التي صادفها في الطريق، حيث يقول عن قصر أزدف، وهو قصر من قصور زناكة، ما يلي:

"مررت قرب عدد كبير من القرى والقصور وأهمها قصر أزدف، حيث سكنى الشيخ. إنه قلعة تحيط بها عدّة أسوار وتنتشقها عدّة أبراج. القلعة من المقدار مثلما هي عليه كل بنايات زناكة ومنمقة بأناقة. صادفت أيضا عدة زوايا"[1].

وإذا كان سكّان هذا القصر مستقرين، نظرا لطبيعة المناخ السياسي الذي يحكم المكان، وللصراعات المتواجدة بين القبائل والفخذات، فإننا نرى قصورا أخرى لرحل يبنونها فقط كمخازن أو ملاجئ يحتمون بها من الأعداء في أوقات الأزمات. لكنهم يفضلون العيش في الخيام والكهوف في أوقات الأمن والهدوء. وصل دوفوكو إلى قصر تساونت فقال عنه:

[1] – شارل دوفوكو، مصدر سابق، ص277.

"تساونت قصر صغير ينتمي إلى فخذة أيت حمو وهي فخذة مهمة لأولاد يحيى. شيد القصر من المقدار حسب نموذج البناء في درعة. به عدد كبير من الناتئات وتنميقات تكسو الجدران وأبراج مشرفة على سطوحها(..) قي هذا الوقت كان القصر خاليا من السكان. إنهم منتشرون بجواره. يعيش السكان في أكواخ من قصب ويصاحبون قطعانهم إلى المراعي".[1]

يؤكد ما قاله دوفوكو هنا ما أشار إليه القبطان جورج سبيلمان عن قبائل آيت عطا، وعن مساكنهم والأسباب التي تدفعهم إلى اتخاذ السكن في الخيام رغم تواجد قصور مبنية بطريقة جيدة إلى جانبهم:

"لا يحب العطاوي العيش في جماعة ومغلقا داخل القصر، ولا يضطر لذلك إلا لسكنى تجمع احتل بحد السيف مثل ما حدث في درعة وفركلة، وكلما استطاع ذلك يفضل أن يكون له منزله أو تيغرمت خاصة مبني ليس ببعيد عن جاره ولكنه منفصل. وتيغرمت عبارة عن قليعة محصنة بأبراج في الزوايا غالبا ما تكون جيدة البناء، رشيقة وفارعة وجسورة".[2]

فرضت حياة الترحال الاحتفاء بالخيمة، لكنّ ذلك لم يمنع من تشييد قصور جميلة وأنيقة، يتمثل دورها الأساس في الحماية لا غير. وهذا الأمر أشار إليه القبطان سعيد كنون حين تحدث عن قبائل آيت أومالو رغم اختلاف الطبيعة والمناخ وعدد من الجوانب.

تؤكد الإشارات الواردة عند دوفوكو أن الواحات كانت خصبة وغنية، وهذا ما تجسّد في مساكنهم وأشكال قصورهم. إذ تنعكس الحياة الاقتصادية والاجتماعية المتميزة على كل المظاهر الفنية من قبيل الملبس والعمارة. لكننا مع هذا الجاسوس لا نجد أبدا معالم الحياة المدينية، من تواجد صناع وتجار ونظم سياسية حاكمة تربطها علاقات واضحة بالسلطة المركزية. ما يعني أننا إزاء أنظمة تكاد تكون مستقلة؛ غير أنها غنية رغم حالة اللا-استقرار التي تعتريها من حين لآخر. يقول دوفوكو عن وضعية القصور المحاذية لوادي درعة:

"في كل مكان تظهر آثار ساكنة غنية: تنبت خضر تحت ظل النخيل والأشجار المثمرة إلى جوار الحبوب. وتبدو عرائش الكروم ومقصورات من مقدار: إنها أماكن الراحة حيث يقضي المرء ساعات القبلولة تحت الظل وبين أحضان الطراوة (..) ينتشر عدد الأولى للإبطين: يوجد عدد قليل من هذه القصور في الوادي إما اقتصادا لتربة ثمينة أو خوفا من الفيضانات. لجميع القصور مظهر الأناقة هذا، وهو مظهر خاص ببنايات الدرع. لا يوجد بتاتا حائط واحد بدون ناتئات أو بدون رسوم

1 – المصدر السابق، ص280.

2 – جورج سبيلمان، آيت عطا الصحراء وتهدئة أفلا-ن-درا، ترجمة: محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية- الرباط، ص53.

تخترقه شرفات مجيّرة، وتنتصب في كل مكان تغرمتن عالية وأبراج، وحتى المساكن الأكثر فقرا بها كثير من القبات الصغيرة والشرفات المقوسة والحواجز المفرغة".[1]

تطلبت رحلة دوفوكو الدّقة في نقل المعلومة، نظرا لطابعها الجاسوسي الصرف؛ إذ وجب عليه أن يتحدّث عن أهمّ الأشياء التي يمكن أن يستفيد منها بلده المنطلق من الآخر. لذلك، نرى أننا أمام صورة مقربة عن الموقع ومواد البناء والشكل والزخرفة والمكونات والوحدات. وكلها عناصر مهمة لدارس العمارة ودارس التاريخ تفضي به للكشف عن جوانب أخرى من قبيل النمط الاقتصادي والنظم الاجتماعية وغيرها.

وإذا كان هذا النوع من الرحلات يتحدّث في نقاط مختلفة، فإننا نلفي رحلات أخرى تعطي فنّ العمارة موقعا أكثر أهمية من قبيل الرحلات العلمية والرحلات السياحية. هذا النوع الأخير نلفي من يمثّله من خلال رحلة كل من جوزيف كولفان ومارك دومازيير لقصبات الأطلس الكبير. كان الهدف من الرحلة تعريف غير المغاربة بجزء من المغرب ظلّ مجهولا، ومحاولة التسويق للسياحة الداخلية لهذه المنطقة. بدأت الرحلة من مراكش في اتجاه جبال الأطلس الكبير وقصباته الشاهقة والجميلة من قبيل قصبة تلوات موطن القادة الكلاويين، وامتدت في اتجاه درعة. توقفت الرحلة في محطات عديدة، مقدّمة أوصافا يستطيع كلّ شخص فهمها بالنظر لبساطتها.

إن ما يطبع مختلف القصبات الموصوفة هو سمة التقارب، وكأننا أمام قصبة واحدة بمسميات مختلفة وبأماكن متعددة. وقد وصفا تاوريرت ورزازات، فقالا:

"وتاوريرت ورزازات ذات الأبراج المصفرة المائلة إلى الأخضر– الرمادي هي قلعة حقيقية تشرف على الواديين، ومن ثمّ على الطريقين المتوجهين إلى الشرق (عبر تافيلالت) وإلى الجنوب (السودان)، وتشمل، على غرار قصبة تلوات، الإقامة الخاصة الفسيحة والمنغلقة للقائد السي حمادي، القصر بصريح القول؛ والبناية الأهم الأكثر علوا من بناية تلوات، مؤلفة من أبراج ضخمة مربعة، منصوبة بصورة غير متقنة على هيكل المبنى، وللجدران المفعمة بالرسوم البارزة نوافذ مزينة منحوتة، مكللة بشرافات بيضاء".[2]

لم يكتف المؤلفان بتحديد الموقع والشكل وأهم العناصر المعمارية لهذه القصبة، وكذا مختلف الوظائف التي تؤديها عند القائد وغيره من القرويين الموجودين خارجها، وإنما تحدثا أيضا عن مواد البناء التي أثارت استغرابهم. يقولان:

---

[1] – شارل دوفوكو، مصدر سابق، ص282– 283.

[2] – مارك دومازيير وجوزيف كولفان، قصبات الأطلس الكبير، ترجمة: حسن أميلي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2022، ص95.

"إنها كتلة ضخمة جهة الطريق بجدار مشيّد بدوره بالتراب المدكوك، لأن القصبة بنيت بالطابية؛ ويطرح السؤال حول كيفية تمكّن الأسوار من الصمود، ولا ندري حجم السّمك. وبالفعل، فإن القائد الذي قدم نحونا استضافنا في مبنى مستقل ذي طوابق، على السطح، وأدخلنا إلى حجرة الضيوف ذات السقف الملوّن".[1]

ما يلاحظ على هذه الرحلة هو أنها لم تتغلغل في الصحراء والواحات، وإنما جالت كثيرا في جبال الأطلس. لذلك نرى تفاوتا كبيرا فيما أفرده المؤلفان للوحات وما حصل عليه الجبل. لهذا، نجد فقط وصفا آخر لواحة سكورة وقصباتها، والأدوار التي تؤديها هذه القصبات في حياة السكوريين. يقول المؤلفان:

"على بعد خمسين كلم يحاذي المسلك واحة النخيل البهية لسكورة التي تمتدّ على جانبي وادي زارار، أحد روافد دادس، بنخيلها وأشجارها المثمرة. ويتوالى تعدّد القصبات ذات الأقباء المزدانة بالرسوم والشرافات ببساتينها على هيئة صفوف مطلة على الوادي، إلى درجة خيّل لنا استعراض قلاع صغيرة. وقد تكون مبالغة للدلالة على تلك المنشآت المشيّدة بالتراب المدكوك، غير أنها تمتلك جدرانا شاهقة، وقليلا من الفوهات الخارجية، وكون القبو يستغل كمراقب لمعاينة المحيط الخارجي، لها مظهر الحصون المنيعة"[2].

إن ما يميّز هذه الرحلة هو كمّ الصور الهائلة التي رافقت الكتاب من مبتدئه إلى منتهاه، وهو ما يعطي لما يقولانه مصداقية أكثر من ناحية الأوصاف المعمارية. وهذا بخلاف ما نجده في رحلات أخرى كثيرة جعلت من الصحراء محطة من محطات أخرى كثيرة خلال مسيرها.

نتائج وخلاصات:

تعرّضنا في هذه الدراسة لتجليات فنّ العمارة الصحراوية في أدب الرحلات، وذلك من خلال رحلات متعدّدة وليس رحلة واحدة. إذ إن مختلف الرحلات التي استندنا إليها تتحدث عن الصحراء إلى جانب مجالات أخرى، وليس حديثا مفردا؛ ذلك أن هناك رحلات عديدة جعلت من فضاءات بعينها مكانا تنتقل إليه وتنقل لنا تفاصيله. لكن الرحلات التي جعلناها متنا لنا لم تضع المجال الصحراوي إلا كفضاء ضمن عوالم أخرى، وهذا ما جعل إمكانية المقارنة في كمّ وطرقة الوصف، وكذا المنشآت المعمارية، واردة بشكل كبير.

1- المصدر السابق، ص95.

2- المصدر السابق، ص97.

إن هذا البحث، من خلال تقصيه في رحلات عديدة، وفي أشكال تمظهر فن العمارة داخلها، خلص إلى نتائج نجملها فيما يلي:

- أدب الرحلات يهتمّ بوصف العادات والسلوكات وثقافة الأقوام الذين يتمّ الانتقال إليهم.
- فنّ العمارة فنّ يمكن من خلاله معرفة عدد من الجوانب المهمّة من قبيل السياسة والنظم الاجتماعية المؤطرة لجماعة ما.
- عدد من الرحلات، رغم أنها جعلت من الصحراء محطة من محطاتها، لم تتحدث كثيرا عن عمارة المستقرين بها أو الرحل الذين يجتازونها إلا حديثا عابرا. وذاك ما لاحظناه مع الحسن الوزان ومارمول كاربخال وبيدو دوسان أولون.
- إن هذا الحديث العابر لا يفيد الدارس كثيرا في معرفة ملامح العمارة المحلية، ولا في معرفة جوانب أخرى. مما يجعلها عمارة ضبابية في المرحلة المدروسة.
- موضوع العمارة الذي كان هامشيا في هذا النوع من الرحلات، يكون مركزيا حينما يتحدث هؤلاء الكتاب عن المركز، وذلك من قبيل مراكش وفاس.
- هناك رحلات أخرى جعلت من الصحراء محطة أساسية في طريقها، وأفردت جزءا مهمّا من حديثها عن فنّ العمارة عند سكّان الصحراء، باعتباره أوّل ما يشاهده الرحالة من مظاهر ثقافة القوم.
- الأوصاف التي يقدمها هؤلاء الرحالة، من قبيل دوفوكو ومارك دومازيير وجوزيف كولفان، توصل القارئ لبناء تصور واضح عن فنّ العمارة.
- إشادة مختلف الرحالة الذين زاروا المنطقة بعمارتها، باعتبارها عمارة مزدهرة وأنيقة.

توصيات الدراسة:

خلصنا، من خلال دراستنا هذه، إلى مجموعة من التوصيات نوردها على الشكل التالي:

- ضرورة الاهتمام بأدب الرحلات باعتباره مصدرا غنيا وثرا بالمعلومات سواء عن مدن المركز أو الهامش.
- جعل أدب الرحلات بمثابة وثيقة تاريخية نستنتج منها عددا من العناصر الخاصة بعادات القوم في البناء والزخرفة والأشكال والطرز المعمارية.
- وجوب الاعتماد على أدب الرحلات لإبراز التغيرات التي حصلت في فكر وثقافة ومستوى عيش السكان، وذلك من خلال حديث الرحالة عن عمارة القوم وأهم المنشآت التي تحتضنها مدنهم.

قائمة المصادر والمراجع:

- تيراس، هنري، القصبات الأمازيغية بالأطلس والواحات، ترجمة: حسن أميلي، معهد الشارقة للتراث- الإمارات العربية المتحدة، ط:1- 2019، ط1، 1999.
- دو سان أولون، بيدو، سفارة لويس الرابع عشر إلى المولى إسماعيل، ترجمة: محمد العافية العروسي، مطبعة تطوان، ط1، 2017.
- دوفوكو، شارل، التعرف على المغرب، الجزء: 1، ترجمة: المختار بلعربي، دار الثقافة- الدار البيضاء.
- دومازيير، مارك؛ كولفان، جوزيف، قصبات الأطلس الكبير، ترجمة: حسن أميلي، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2022.
- سبيلمان، جورج، آيت عطا الصحراء وتهدئة أفلا-ن-درا، ترجمة: محمد بوكبوط، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية- الرباط.
- كاربخال، مارمول، إفريقيا، الجزء: 3، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف الجديدة- الرباط، 1984.
- الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، الجزء :2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط2، 1983.